في الفلسفة الحديثة

مصادر العلم

الحديث

الدكتور ابراهيم ناجي

لي سؤال أوجهه اليك ايها القارىء العزيز : أتعرف معنى هذه الانسانية الصاخبة الغدوية . كيف نشأت ؟ وكيف تطورت ؟ لا اقصد ان تعد الي فصول التاريخ والجغرافية . أو ان تعيد الي فصولاً في علم الاحياء أو الاجتماع . انما أقصد ان تخبرني على وجه التحقيق ما تراه في تطور العقل البشري ! أتظن ان العقل البشري ، ذلك العقل العجيب الذي فهم بالمنطق التجريدي أعظم حقائق الكون ، وأدرك قوانين الضرورة التي تسيطر عليه ، أتظن هذا العقل يمشي الآن بالانسانية في طريق الخير ؟ واذا كنت لا تعتقد ذلك فهل تعرف لماذا يكون النافع ضاراً والذي تتوسم فيه الخير قد يكون مؤدياً للشر ؟ ثم سؤال آخر ..

انت تدرك ايها القارىء الكريم ما تعلمته في التاريخ أن العالم قد وثبت وثبتها الكبرى بعد عصر النهضة . وان البشرية كانت تغط في نوم عميق قبل ذلك اجيالاً ؟ ما الذي يجعل البشر يفيقون ذلك الفيوم العجيب ؟ وعلى أي نداء يستيقظون ؟ اذا كنت تريد ان تلم بدقائق هذا الموضوع الخطير فأنا أنبئك بكتابين من اعظم كتب العالم . الاول كتاب « العقل في طور التكوين » تأليف روبنسون « Mind in The Making » وكتاب « العلم والعصر الحديث » تأليف هوايتهيد « Science And the Modern World » واحب ان ترجع لك في هذا البحث علاقة الفلسفة بالعلم وهل نحن الآن في عصر يصلح للفلسفة أو هي قد مات دورها ؟

ما لا يشتهي ابه الفيلسوف من الناحيتين من ساعي المسعاة واسير وكل ما يحاوله يتخذ اتجاه أخذاً عنهم أو سيراً على غرارهم أو تكملة لما بدأوا به . حقيقة مضت حقب من الاجيال نسي فيها أثرهم . وجهلت البشرية أمرهم . وكان الرأي لغيرهم على هذا الترتيب في التاريخ : اثروبان — القسطنطينية (القرن الرابع) وبغداد . العصور الوسطى أي عصور الظلمة الى القرنين السادس والسابع عشر حين ستيقظ العقل البشري من غفوته الطويلة فأخذ المفكرون والمبتكرة يرجعون الى مخلفات أثينا . ويراجعون آراء فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو

من أول الامر كان الاعتقاد ثابتاً بوجود نظام طبيعي ثابت يحكم الاشياء كلها ويتدخل في صميمها . كان الاعتقاد ثابتاً بوجود قوانين أزلية تسيطر على الوجود ويظهر ان الانسان لاعتقاده الفطري بذلك كان مقلداً لذلك النظام الطبيعي فما كاد أثر أثينا يزول حتى أخذ الرومان يشرعون قانونهم المشهور وهذا القانون مثل أعلى في شيئين : الاول في استقائه من فلسفة أثينا والثاني في جعل الترتيب الطبيعي الذي يشعر الانسان بوجوده في القوى الخفية المسيطرة ، مسيطراً كذلك على أحوال البشر ومعايشهم وان كان الفرق ظاهراً بين قوى أزلية وقوى مرنة بأيدي البشر . وزاد هذا الترتيب الطبيعي علواً على مدى الاجيال فصار ترتيباً قاسياً لا يلين ولا يناقش (وذلك في العصور الوسطى) ومهما يكن في أمر تلك العصور المظلمة فانها من الثابت انها كانت تدريباً للبشرية على النظام والطاعة . ولكن هذا النظام الصارم الذي قوامه رد جميع الظواهر الى قوى مسيطرة حديدية المنطق كان يقابله تفاعل كبير . ففي أواخر القرن السابع عشر أخذ العقل البشري يستيقظ شيئاً فشيئاً من العجيب ان كل حقيقة من حقائق الحياة نردها الى تلك القوانين المسيطرة . وجميع الخوارق نردها الى قوى مجهولة لا ندرك كنهها . أليس من الصواب ان نعيد فنناقش تلك الحقائق الثابتة لنقرر عن في مناقشة الامر العادي من جديد فهم الغير العادي وردها الى مصدر واحد

أخذ العقل البشري يناقش من جديد الحقائق التي مرّت على الاجيال صارمة قاسية المنطق لا تلين . .

هذا هو المنطق العلمي الجديد . أوله إيمان بوجود نظام طبيعي للوجود والثاني مناقشة الحقائق التي تبدو لاغلب الناس عادية مألوفة

ومعنى هذا ايمان بقوة العقل البشري وقدرته بمجرد التفكير التجريدي الوصول الى قوانين تلك القوانين . كانت هذه النقطة في زمنين متقاربين وفي أمريكا عند جاليليو وديكارت في الطبيعة وديكارت في الفلسفة . العلم أخذ يناقش الحقائق المقررة عن عقيدة . والفلسفة عن عقيدة أخذت تقول « اني أفكر فاذن أنا موجود » . فكما كان جونّ ينظر الى الناس نظرة الجاذبية كان ديكارت يراجع الفلسفة من أولها وردها الى التفكير الصرف وكما كان في الماضي بوجه عام يضع على أساس الحاضر فلسفة جديدة . ومن العجيب أثر الرياضيات في ذلك التفكير . فأغلب هؤلاء المفكرين رياضيون لا يستثنى منهم الا هوبز . وقد ظل كثير من الناس أثر الرياضيات في تفكير البشرية ولكن الواقع ان معنى الرياضيات الفلسفي هو اتضاح التفكير التجريدي البحت . فان قوانين الرياضة ومعادلاتها قوانين عامة . وما هو معنى الجبر ؟ ما معنى س ، ص ؟ ما معنى تلك المجاهيل ؟ معنى ذلك ان تكون تلك القوانين [illegible]

بشخوص معينة هذا هو معنى التجريد . وكل قانون من هاته القوانين مفتاح لقانون آخر، حتى يمكن ان يقال ان هاته القوانين سلسلة متناسقة من حلقة كبيرة كقصر كبير متعدد الحجر والسراديب . كل مفتاح يفتح باباً جديداً ويؤدي الى حجرة جديدة . وخلاصة هذه المفاتيح وتلك المفاتيح التي اهتدى اليها المنطق بغير حاجة الى الشخوص والمحسوسات ذلك النظام المتناسق الرياضي الذي اسميه « الوجود » . ولكن مع الأسف قد سيطرت على الاجيال حتى بعد عصر النهضة فكرة كئيبة . هذا النظام ما هو ؟ أنظام مادي غير مسؤول ؟ هذه الفكرة المادية التي تخاطت الفكرة التي وراءها ، وهي فكرة « القوة الحيوية » التي ذكرها أفلاطون وعاد اليها برجسون اليوم — أعطت (اي الفكرة المادية) للعالم معنى الوجود الذي يقوده عنانه قوة ميكانيكية عاشمة الى ان وجد الفكر البشري اليوم في مأزق يضطره اضطراراً الى طرح هذه الفكرة المادية . واليك البيان : انتهى المنطق التجريدي البحت الى حقيقة هائلة . بل الى حقيقتين الاولى حقيقة التكرار والثانية حقيقة الاهتزازات . وما الثانية الا صدى الاولى . فكل شيء في الحياة يتكرر . هذا التكرار اساس الوجود والحياة ولا يمكن لانسان ان يتذكر شيئاً اذا لم يتكرر . فالفصول تتكرر والقلب يكرر نبضاته والموجة لا ترسم الا بتكرار خطوطها . ما هو النور ؟ ما هو الصوت ؟ ما هو اللحن الموسيقي ؟ ما هذه كلها الا اهتزازات متكررة . وليس لموجة من موجاتها قيمة في وقت معين وانما قيمتها في التكرار ونحن عندما نحلل عناصر الحياة ننتهي الى الالكترونات والى البروتونات ثم الى ما يسمى الكوانتم اي دقيقة « الطاقة » او الكهرباء التي باهتزازها وانطلاقها تكون البروتونات فالذرات . ولكن هذه الذرات عندما نشاهد مساريها الفيمية نجدها تنتقل ولكنها لا تعبر الفراغ الذي تراه اعيننا . فهل هناك إذن فراغ آخر ؟ ها هي ذي الفلسفة تمد يدها لتخرجنا من مأزقنا . وتقول لنا كلا . هناك فراغ آخر وراء الطبيعة تعبره تلك الذرات . وهذا الفراغ لا تراه أعيننا ولا تستطيع ان تراه . ولكن العلم يحتم وجوده ويقرره . وكذلك نرجع الى تلك الحوارق . اني أفسر لكم ألم تهتدوا الى التكرار والاهتزازات ؟ ألم تقولوا ان كل ذرة لا معنى لها ولا وجود الا بذلك التكرار . ولما لا تكون الحياة أمواجاً من الطاقة . وكل موجة في الطاقة لا تبقى لها قيمة الا بتكرارها في الفراغ الذي لا أجد حرجاً في ان أسميه الطاقة وهو اسم كما يقال لا يسمن ولا يغني من جوع . ولكن لا بأس به ما دام يعبر عن الفكرة . وكيانها وذلك تروبها في مكان . ثم تختفي في آخر ثم تعود للظهور في غيره عندما تستكمل اهتزازاتها وزمانها

ما معنى هذا ؟ معنى رائع . ان هذه القوى المفكرة التجريدية البحتة هي التي تفكر في الاشياء الخاضعة للمحسوسات المادية . أو طبقاً لرأي السير جيمز جينز « الوجود » تفكر في الله . » ما معنى هذا أيضاً ؟ ان العقل هو كل شيء . وانما يعبر « التجريد » يمكن ان نخلق

من العوالم الجامدة وغير الجامدة ما تشاء . وهناك معنى كبير غير ذلك . يستطيع المفكر أن يستيقظ ليشك ويراجع واعتماداً على قوته أمكن أن يناقش فيصل الى ادراج الحقائق . فكثرت المخترعات وازدادت الدنيا بآثار المفكرين ونتاج أدمغتهم . والآن ما حال النفس الانسانية ؟ هل صار الانسان أصفى غرائز وأطهر قلباً وأصفى نفساً ؟ قد لا يكون هذا . فالعقل البشري يثب وثباً . والنفس الانسانية متخلفة في شعاب البهيمية الاولى . وهذا هو للاسف مصدر الشقاء . فأين المفري الذي يدعو الى مراجعة الاخلاق والمعتقدات ؟ اني قد أتخيله ولكن لا ألمسه . فهو بعيد بل هو لم يوجد بعد . وعند ما يوجد فقد يشعر العالم بالميزان الاكبر الذي يتوقف على السعادة التي فكر فيها أفلاطون والتي ينتهي اليها تفكير السعادة والروح على السواء

فكرة ضائعة

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

فيم أفكر ؟ في هذه الساعة
وفي أيّ حلم جميل قد توارى...

هل أملك دموعاً لتبكي عليه ؟
وقد تركني دهشاً محيّراً .

هذه السعادة التي لم يكن عمرها الاّ لحظة ،
لا تقدر جهودي على استرجاعها .

لم أتذوّق فرح الوجود الاّ في الحُلم
وهذا الحلم — يا أسفاه — قد ولى

[نقله خليل هنداوي]